

بيت من الشعر، بيتنا في الجنوب

هدى فخر الدين، لبنان

بيتنا الذي فقدناه في جنوب لبنان في خريف 2024، لم يكن بيتاً بقدر ما كان حلم بيت. كان دائماً قيد التشكُّل، ينمو كالشجرة. منذ أن بدأ والداي يحلمان به في العام 1985، كان ينهض ويسقط كيفما هبَّت رياح الحرب، قائماً في كرم تينٍ عتيق، على قطعة أرض يسمِّيها أهل القرية "السطح"، وهي تتصل بمنحدر على كتف التلّ. أينما نظرت، تقترب السماء وتنبسط تلال جبل عامل قرى متناثرة، وأشجار بلوط، وبساتين زيتون. بإمكانك أن ترى إلى أبعد ما يصل إليه بصرك، في كلِّ الاتجاهات، وأجمل الإطلالات نحو الجنوب الشرقي، باتجاه جبل الشيخ ملتحفاً رداهه الأبيض، ونسيم عليل يأخذ بنظرك إلى فلسطين:

فَشْرَقاً،

بعيداً، بعيداً،

وراء الرُّبى والقُرى،

ينتهي المشهد المتراحي إلى "جبل الشيخ"،

قالوا: هو الشيخُ، يعرف ما حوَّله،

يتبصَّر مثل "كبير أناسٍ" غزا الشيبُ هامتهُ.

فالثلوجُ تُكَلِّلهُ في الشتاء،

ولكنه يتخفَّف في الصيفِ،

يُجْري عمامتهُ،

*خصَّت المؤلِّفة الجنوب: المجلة الفلسطينية للدراسات التحريرية بهذه المقالة التي نُشرت النسخة الأولى منها في *The Key Magazine* في 16 نيسان 2026. وقد أدرجت المؤلِّفة القصائد بالعربية، وترجمت النصَّ المرافق عن الإنجليزية.

Huda Fakhereddine, "A House of Poetry," *The Key Magazine*, 16 April 2026, accessed 20 April 2026.

<https://www.thekeymagazine.com/p/huda-fakhereddine-southern-lebanon-israel-war-memoir>.

كي يُغَدِّي النابيع،
 يخرجُ بين الرُّبَى والقُرَى حاسراً.
 إنَّه جبلُ الشَّيْخِ،
 نجعلُ في بيتنا شُرْفَةً نحوَّه،
 مدخلاً للصباح الذي يتبلَّجُ من فوق هامتهِ.
 يتبلَّجُ أبيضَ أبيضَ،
 مثلَ عمامتهِ في الشتاءِ.
 ... ويطلُّ، بصحبتنا،
 ثابتاً،
 ذاهباً في عنانِ الفضاءِ.
 ...

وأما جنوباً،
 فنحوَ فلسطينِ.
 وأكثرُ من شُرْفَةٍ هي كالبرقِ عبرَ السنينِ.
 فواحدةٌ للتذكُّرِ،
 واحدةٌ للتوجُّسِ،
 واحدةٌ للمعاني التي هاجرت، ثم آبت،
 وتبقى تهاجرُ ثم تؤوبُ ...
 وأكثرُ من كلِّ ذلك طيفُ الأساطيرِ،
 تغدو بها، وتروحُ، رياحُ الجنوبِ.

(جودت فخر الدين، "هندسة"، 2021)



مرثية رقم (1): جبل الشيخ من السلطانية، شتاء 2026

التقى والداي، لطيفة وجودت، في منتصف السبعينيات، بعيد اندلاع الحرب الأهلية في لبنان. كانت هي طالبة فلسفة، وكان هو شاعراً صاعداً، وكلاهما يشرع في وظيفة في نظام التعليم الرسمي. حين قرّرا الزواج في العام 1980، استأجرا شقّة في مبنى يقع في شارع تصطف على طرفيه الأشجار في الضاحية- بيروت الجنوبية، في منطقة تُدعى الرويس. لم تكن آنذاك معقلاً لأحد. لم تكن تثير أيّ افتراضات حين يُذكر اسم الشارع، ولا صوراً نمطية ولا انتماءات محدّدة. كان حيّاً نابضاً بالحياة، فيه بضع بيوت قديمة ذات حدائق جميلة، تعود لعائلات معروفة في المنطقة وأبنية جديدة ومساحات خضراء. كانت الشقّة في الطابق السادس، والمشهد مفتوحاً حتى بعيدا، بلدة على كتف جبل لبنان المقابل.

هذا هو البيت الذي أُحضرتُ إليه حين وُلدتُ في العام 1981. وقيل لي لاحقاً إنه كان لي غرفة فيه. لا أملك أيّ ذكريات عن الحياة في تلك الشقّة. بعد وقت قصير من ولادتي، انفجرت سيارة مفخّخة في الشارع، فاحترق العديد من الشقق، ومنها شقّتنا، وأصبحت غير صالحة للسكن. وبعدها ببضعة أشهر، سقط صاروخ في إحدى غرف النوم. لحسن الحظّ، لطيفة وجودت وطفلتهم كانوا في زيارة عند الأهل في الجنوب حين حدث ذلك. سرعان ما تخلّوا عن حياتهم القصيرة في ذلك البيت الأول، ليقتضوا بعد ذلك عقداً من الزمن في بيوت مستعارة: شقق الأقارب، ولفترات طويلة عند الأهل في الجنوب، عائلة أمي في عنقون، قرية على منحدر الجبل فوق صيدا أو عائلة أبي في السلطانية، في قضاء بنت جبيل. تنقلنا أنا وأخي علي (الذي وُلد بعدي بعامين) معهما بالسيارة في لبنان المشتعل طوال العقد الأول من حياتنا.

مع ترسُّخ الانقسام بين بيروت الغربية وبيروت الشرقية في الثمانينيات، وتدهور الأوضاع أكثر، قرّر والداي نقل تعيينهما التعليمي إلى الجنوب. عاشا في بيت جدّي في السلطانية. كانت أمي تُدرّس في مدرسة القرية، وكان أبي يُدرّس في ثانوية في القرية المجاورة، تبين. لم يتمكّننا من الابتعاد عن بيروت سوى لبضع سنوات. عادا بعدها للعيش في بيوت مستعارة والتدريس في المدينة. لكنهما كانا يعلمان أن القرية ستبقى دائماً المكان الأول والأخير. تخيّلا الحياة دائرة، وقرّرا أن يبنيا بيتاً يكون مركزها. في العام 1985، طلب أبي من جدّي قطعة أرض، وبدأ والداي، ببطء شديد، وبقدر ما يسمح به راتبنا معلّمين في المدارس الرسمية، بدأ ببناء بيت.

سنبدأ من غيمةٍ عابرة.

فنجعل من ظلّها خيمةً،

كائناتُ الحديقةِ تأوي إليها،

وقد تستطيل، فلا بأس إن خرقتّها،

لتفتح بعضَ السماواتِ في سقّفها.

خيمةً، ستكونُ إذاً فسحةً لا حجاباً...

ولكنَّها فشحَّةٌ نحن نرسُمُها،
ونُحدِّدُ أطرافَها،
ونُسيِّجُها بانتباهاتنا الحائرة.

...

ونجعلُ للشعر في بيتنا عُرْفاً، ونوافذَ،
كلَّ النوافذِ، كلَّ العُرْفِ.
وهو يفتحُ أكثر مما جعلنا له.
ويعلِّمنا أنَّ معنى الإقامةِ ينجو،
ويخلو،
ويغدو كثيراً كثيراً،
إذا كان بعضُ معاني الشَّغْفِ.

(جودت فخر الدين، "هندسة"، 2021)



مرئية رقم (2): هدى وعلي في "السطح"، منتصف الثمانينيات

كبرت أنا وأخي علي في زمن الحرب، تنتقل من بيتٍ مستعار إلى آخر في بيروت، دون أن نشعر بضيم أو حرج، أو هكذا ظننا. لم يتسرّب إلينا شعور بالغبّة، لأنّ التنقّل الدائم كان حالنا منذ بداية الحياة. وكنا مطمئنين إلى فكرة أن لنا بيتاً. لم يكن قائماً بعد، لكنه كان في طور التكوّن، يتشكّل في الليل ونحن نيام، ينهض من الأرض، يتمطّي شرفاتٍ، ويرتفع جدراناً، ويبتسم نوافذاً. لم تكن تزعجنا المساحات الضيّقة التي عشنا فيها، ولا ثياب الآخرين المعلّقة في الخزائن، ولا الغرف التي لم يكن مسموحاً لنا فتحها لأنها "ليست لنا". لم يكن يضايقنا أن الشقق التي قضينا فيها طفولتنا كانت مؤقتة، فقد كان لنا بيت، بيت لنا وحدنا، رحب بقدر ما تتسع له أحلامنا. نسّميه بيت السطح، بيتنا في القرية.

في الصباح الباكر، لا بدّ أن الوقت كان مبكراً جداً، كانت أمي متوتّرة بسبب الفارق في الوقت وقلة النوم، وعلى الأرجح لم تنم إطلاقاً، في انتظار اللحظة المناسبة لإجراء الاتصال. كان ذلك في تشرين الثاني 2024. وجد جودت ولطيفة نفسيهما، شبه مكرهين، في فيلادلفيا. بعد سنتين من الإبادة في غزة، كانت "إسرائيل" تُنهي مهمّتها في لبنان، تسوّي ضاحية بيروت الجنوبية بالأرض وتُصعدّ عدوانها في الجنوب. وكان والداي قد عاشا خمسة عشر عاماً طويلة من الحرب الأهلية اللبنانية، وشهدا غزوات واعتداءات "إسرائيلية" لا تُحصى، من العمليات الواسعة أو الضيّقة، ومن تقلّبات بلدٍ يرزح تحت وطأة التاريخ. بحلول العام 2000، كانا يعيشان في شقة في الحمراء، بالقرب من الجامعة الأميركية في بيروت، حيث درست أنا وبعدي أخي الأصغر محمد (المولود في العام 1993، بعد نهاية الحرب الأهلية)، وحيث أخذ والدي يدرّس بعد تقاعده من الجامعة اللبنانية. تمكّن جودت ولطيفة على الرغم من كل الصعاب، الصعاب نفسها التي تواجهها كل عائلة لبنانية، تمكّنا من بناء حياة وإعادة بناؤها، مرّة بعد مرّة.

في تشرين الثاني 2024، نجحنا، أنا وأخوأي، في إقناعهما بالمغادرة مؤقتاً. لم يتحصّرا لإقامة طويلة. وكانهما تعمّدا جعل إقامتهما خارج بيروت صعبة، وغير مريحة، لكي تنتهي بسرعة. هي لم تجلب معها من الأدوية الضرورية إلا ما يكفي لأسبوع. وهو نادراً ما كان يجلس، يروح ويجيء بلا توقّف أينما ذهبنا. والأخبار... كانا في بحث دائم عنها.

كان الوقت مبكراً جداً في فيلادلفيا، وأمّي تنتظر الاتصال. في الليلة السابقة، كنا قد تلقّينا خبراً بأن البيت في الجنوب قد تعرّض للقصف. كان البيت قد اكتمل أخيراً. وقبل بداية الإبادة في غزة، كان جودت ولطيفة، وقد تقاعدا، قد بدأ التفكير في العيش فيه بشكل دائم.

وصل الخبر، فرحتُ أبحت في حسابات الأقارب على وسائل التواصل الاجتماعي لعلّ أحداً نشر صوراً. أبي جلس أخيراً. أمّي بدأت تُساوم مخاوفها: "لقد تعرّض للقصف من قبل. ربما الضرر طفيف. لعلّ الصاروخ سقط في الحديقة. ربما الأمر يقتصر على الزجاج. كنا نعرف أصلاً أنه لن يبقى زجاج." وظلّت تكرّر ذلك. لم أعرّ على أيّ

صور أو أخبار إضافية. وهكذا قرّرنا أن نستيقظ باكراً ونُتصل بالزاعي، مصطفى. لا بدّ أنه يعرف شيئاً.

في تشرين الثاني 2024، غادر الجميع القرية ما عدا مصطفى. حتى زوجته وأطفاله رحلوا، أما هو فاضطرّ للبقاء مع الخراف. كان لديه بعض الماعز كذلك. كان مصطفى راعي القرية، كما كان أبوه قبله. في الصيف وعطلات نهاية الأسبوع التي كنّا نقضيها في القرية، كنت أراه من الشرفة نهاية كل يوم تقريباً. يعبر الوادي مع القطيع. يتمهّل في مشيه، أحياناً ينادي خروفاً شاردأً، دون أن يلتفت نحوه. كان يعلم أنه ما إن يبدأ بالسير حتى تتبعه الخراف والماعز جميعاً. كان يمشي في الأرض، يقفز فوق الجدران الحجرية، ويترك للخراف أن تتدبّر أمرها. أما الماعز فتجد الطريق مهما توغّرت.

كان مصطفى يبدو من الشرفة وكأنه خارج الزمن، مع أنني كنت أعلم أنه في مثل عمري، أو أكبر مني ببضع سنوات فقط. تراودني ومضات من ذكريات اللعب معه ونحن أطفال، حين كان والداي يعيشان في القرية. كانت أمي تتركني أحياناً عند والدته. جميع إخوته الأكبر سنّاً كانوا تلاميذ أمي في مدرسة القرية. لا أذكر الكثير عنّي وعن مصطفى في طفولتنا سوى خصلات شعره الذهبية وعبق التراب وفضلات الماعز في حديقة بيتهم.

لدى مصطفى هاتف محمول تصله الإشارة، لكن ليس حين يكون خارجاً مع الخراف اتصلنا مرّة. لا شيء. اتصلنا مرّة أخرى. ردّ. قلت: "صباح الخير، أستاذ مصطفى؟ أنا ابنة جودت فخر الدين. سمعنا أن البيت قد تعرّض للقصف. هل مررت من هناك مؤخراً؟"

لم يكن قد مرّ. لكنه وعد بأن يحاول في المرّة القادمة حين يخرج. وقال: "إذا اتّصلتم بي ولم أجب، فإما أنه لا توجد تغطية أو أنني متوتّر ولا أستطيع الكلام،" ثم أنهى المكالمة. بعد يومين، تلقّينا أربع صور. الأولى لواجهة البيت. بدا سليماً، باستثناء الأبواب الزجاجية التي تحطّمت. أطلقت أمي زفرة ارتياح. ثم الصورة الثانية جانبية. دمار. الثالثة والرابعة، كانتا لبيتٍ مجوّف. صاروخان سقطا فيه، واخترقاه. الواجهة بقيت قائمة، لكن البيت تقوّض على نفسه وانهار إلى الداخل. زاوية واحدة فقط بقيت في الطابق العلوي سليمة كالمعجزة: المكتبة واقفة وسط العدم. الأرضية تحتها صمدت بصدفة هندسية، لكن السقف انفتح على السماء.

وتلك كانت مكتبتنا الحقيقية. كل ما له قيمة، ما ينبغي حمايته من الزمن والحرب، نرسله من بيروت إلى مكتبة الجنوب: أوراق، صور، الكتب الأكثر أهمية من غيرها، الوثائق العائلية، كثير من الكنوز الصغيرة الأخرى. والآن، في فيلادلفيا، كنا أنا والداي نقرّب الصور ونُبّعدها، ونشغل المقاطع ذهاباً وإياباً على شاشات هواتفنا الصغيرة، نتفحص ركام كل ما كان عزيزاً علينا، ركام المكان الذي ظنّناه سيبقى صامداً في وجه الزمن.



مرئية رقم (3): البيت، صيف 2025

عندما أعلن وقف إطلاق النار في لبنان في 26 تشرين الثاني 2024، حجز والداي على متن طائرة عائدين في اليوم التالي مباشرة. لا جدوى من محاولة إقناعهما بالانتظار، ولا بتذكيرهما بما هو فعلاً وقف إطلاق النار مع الوحوش. لم يستطيعا البقاء بعيداً. فقد أصبح لديهما طلل وعليهما الوقوف عليه، وتفحصه، وراثؤه قليلاً، ثم البدء بإعادة بنائه في أسرع ما يمكن.

لأشهر بعد ذلك، وبينما كانت الطائرات الحربية تحلق فوق قرى الجنوب، تحوّلت كومة الركام العريضة علينا إلى ورشة بناء. ما كان ليهدأ لأبي بال قبل أن يُقام سقف واحد على الأقل. صار على البيت الذي كان ذا طابقين أن يتقلص، أن يصبح أصغر مما كان، لكن لا بدّ أن يظلّ موجوداً رغم أنف الزمان.

والداي، اللذان خسرا كل مدّخراتهما في انهيار المصارف في لبنان، جمعا كلّ ما لديهما، حرفياً، كلّ ما يمكن سحبه نقداً على دفعات من أجهزة الصراف الآلي، وكلّ ما كان أبي يجنيه من عمله في التدريس، وكلّ المال المحبّباً بين الكتب في مكتبة الشقة في بيروت، كلّهُ أُخرج من الأدراج ومن الحفائب القديمة وأنفق في إعادة بناء جزء من البيت. في كل عطلة نهاية أسبوع، وعلى الرغم من توّسلاتنا، نحن الأبناء في الولايات المتحدة، وضدّ كلّ منطق، كان أبي وأمي يذهبان إلى القرية لتفقد العمل ودفع الفواتير، و"إسرائيل" تواصل قصف الطرق والجسور والقرى.

يقول أهل قريتنا إن شجر التين لا يموت. قبل أن تذبل الشجرة الأم تماماً، تنبت عند جذورها ثلاث أو أربع شجيرات صغيرة. لا بدّ أن تتولّى إحداها المهمة وتنمو مثل أمّها. فينحني جذع البنت في الاتجاه نفسه كجذع الأم، وتمتدّ أغصانها في الهواء راسمةً أغصان أمّها. وبيتنا قد تعلّم طرق التين. تعرّض مراراً للقصف في الاجتياحات "الإسرائيلية" الصغيرة أو الكبيرة، لكن الأضرار كانت دائماً محدودة نسبياً: نوافذ، جدار، شرفة تسقط، بئر يُصاب. أمّا هذه المرّة، فقد سُويّ البيت الذي كان يعرف دائماً كيف ينهض من جديد بالأرض.

فيما كانت الإبادة مستعرة في غزة، وفي ظلّها التدمير المنهجي لجنوب لبنان، تحوّلت محادثاتنا العائلية إلى مساومات عبثية: هل يمكن أن يقصفوا البيت نفسه مرّتين؟ هل تجعل عمليات البناء الظاهرة منه هدفاً؟ والكتابة عنه والنشر على وسائل التواصل كذلك؟ كان هذا التوجّس مبرّراً. فقد سمح العالم لجيش الاحتلال "الإسرائيلي" أن يفعل ما يحلو له من توحّش في غزة لسنوات، وفي لبنان، تجوب مسيراته الشريرة طول البلاد وعرضها، وتستهدف أيّ شخص في أيّ مكان، لسبب مزعوم أو بلا سبب. ومع ذلك، بحلول كانون الثاني 2026، كان لبيتنا جدران وسقف ونوافذ وبوابة. كان ينهض من جديد، وكنت لا نزال نأمل بأن نعود إليه قريباً.

اتصلتُ بعَمَّتِي وهي تهرب من القرية. فاطمة عاشت لأكثر من عشرين عاماً في الولايات المتحدة، ثم عادت في النهاية إلى لبنان وبنّت بيتاً جميلاً ذا إطلالة تخطف الأنفاس. من شرفة بيتها كانت ترى بيتنا، بيت أخيها، عبر الوادي. هكذا تحيّلنا أن نقضي كل صيف: أشهراً بطيئة نكون فيها معاً في مكان يعرفنا كما نعرف أنفسنا.

حين بدأت القذائف "الإسرائيلية" تسقط على مقربة شديدة من بيتها في 2 آذار 2026، ركبت فاطمة سيارتها على مضض، ومعها موزة وزجاجة ماء، واتّجهت شمالاً نحو بيروت. كان والداي بانتظارها في شقتيها في المدينة. توقّعت فاطمة أن تأخذ الرحلة التي تستغرق عادةً ساعتين وقتاً أطول، فكثيرون كانوا يهربون مثلها، لكن لم يتخيّل أحد منا أن تستغرق الرحلة 22 ساعة للوصول إلى صيدا.

على بعد 45 دقيقة من بيروت، استسلمت فاطمة. أمضت الليل في بيت أحد الأقارب ثم أكملت رحلتها في اليوم التالي. منذ أن غادرت، لم يعد هناك أحد في القرية ليخبرنا عن البيت. سمعنا أن مصطفى غادر هذه المرّة. لا أعرف ما الذي حدث لقطيعه. رأيت مؤخراً خبراً عن قطع من الأغنام الضّالة وصل إلى صيدا. لا يمكن أن يكون قطع مصطفى، فقريتنا أبعد بكثير إلى الجنوب، لكنني كنت سعيدة لأن ذلك القطيع عرف كيف يمشي في الاتجاه الصحيح.

كلّ يوم الآن، ومع استمرار التوحّش "الإسرائيلي" وتوسّع الإبادة التي يقترفها في فلسطين ولبنان، نراقب وننتظر. الجنوب اللبناني في قبضة الوحوش. كلّ الجسور سقطت. والقرى الحدودية احتلّت.

"على كم كيلومتراً سيطروا اليوم؟" يسألني أخي علي عبر الهاتف. "هل سنتمكن من العودة يوماً؟"

لا أعرف ماذا أقول. أفكّر في غزة. أفكّر في المفاتيح الفلسطينية المحفوظة منذ أكثر من 78 عاماً. أفكّر في الشبان والشابات الفلسطينيين الذين التقيتهم في المخيمات في لبنان، والذين ما زالوا يتكلّمون بلهجات أجدادهم الذين طردوا من قراهم، بعضها احتلّ وبعضها مُحي بالكامل. أفكّر في اللاجئين الفلسطينيين في الضفة الغربية وفي أنحاء فلسطين، لاجئين داخل أرضهم.

منحنا تاريخٌ من البكاء على الأطلال لغّة. علّمنا أن نحوّل الأماكن الحبيبة إلى بوابات في الزمن. عندما يبكي الشاعر، يُستدعى عالم إلى الوجود، عالم مليء بالأحبة الذين رحلوا وبالأماكن التي لم تعد موجودة، عالم يفرض نفسه ويصرّ على أن يكون. حين يبدأ البكاء في اللغة، يبدأ شيء ما بالتشكّل وبالتحرّك إلى الأمام. أهو عودة أم رحلة في اتجاه جديد؟ أهو دائرة أم خط مستقيم؟ لا أعرف.

أعود إلى "القصيدة، نفسها"، وهي قصيدة نشأت وأنا أسمع والدي يقرأها في الأمسيات الشعرية، قصيدة لا يزال يكتبها، ولا أزال أعود إليها. هذا مطلعها:

نعود إلى القصيدة نفسها
 (كُتِبَتْ عَلَيْنَا)
 نَسْتَحْمُ بِنَارِهَا،
 وَنُطَلُّ مِنْ أَيْبَاتِهَا الْمَتَشَابِهَاتِ،
 كَأَنَّمَا بُنِيَتْ مَلَاجِيَّ كِي تَقِينَا وَهَجَّ أَنْفِسِنَا.
 نَعُودُ إِلَى الْقَصِيدَةِ نَفْسِهَا
 وَكَمَنْ يُطَلُّ عَلَى فِرَاحٍ،
 لَيْسَ يَمْلُؤُهُ سِوَاهُ،

لَيْسَ يُشْعِلُهُ سِوَاهُ،
 نُطَلِّقُ اللِّغَةَ الدِّفِينَةَ،
 نَسْتَبِيحُ خَزَائِنَ التَّقْوَى،
 وَنَمْشِي نَحْوَ أَسْرَارٍ نُسَمِّيهَا هَوَانًا،
 نَحْوَ أَسْرَارٍ تَمَازُجُنَا،
 تَجَادِبُنَا الرَّدَى،
 تُلْقِي بِنَا فِي تَيْهِنَا النَّبَوِيِّ،
 أَيِّ صَدَى يِعَاوِدُنَا؟
 يِرْحُ بِنَا عُرَى الزَّمَنِ الْمَكْبَلِ،
 أَيِّ بَارِقَةٍ تَزَلْزَلُ صَحُونَنَا حِينًا،
 فَتَخْفَقَ حَوْلَنَا الْأَرْضُ الْقَرِيبَةَ وَالْبَعِيدَةَ،
 تَتَّقِي أَحْلَامَ يَقْظَتِنَا...

وَتَغِيْبُ حِينًا فِي أَقَاصِي رُوحِنَا،
 فَتُظَلِّهَا بِهَجْوَعِنَا الْمَشْبُوهِ،
 نَأْنَسُ بِالْتِمَاعَتِهَا الْمَهِيضَةِ فِي حَنَايَا ظَلْمِنَا الْمَكْسُورِ،
 نَرْضَى بِانْتِظَارِ بَزْوَعِهَا الْمَهْدِيِّ حِينًا بَعْدَ حِينٍ.
 دَأْبُنَا شَوْقٌ مَدِيدٌ.
 تَارَةً يَذُكُو، وَطُورًا يَسْتَهِيمُ،

يُوجِّحُ النَّارَ الْخَفِيَّةَ فِي السَّمَاوَاتِ الْخَفِيَّةِ مِنْ رُؤَانَا.

نهتدي ونهيم،

هذا دأبنا،

شَعَبٌ،

نَهْزُ بِهِ الْعَصُورَ،

نُحِيلُهَا خِرْقًا، وَنَبْقَى خَيْطُهَا.

شَعَبٌ،

نَهِيمٌ عَلَى هُدَاهُ،

كَأَنَّنا تَعَبُ الزَّمَانِ،

يَهْدُهُ حِينًا، فَيَرْزَحُ سَاكِنًا،

وَيُقِضُّهُ حِينًا،

فَيَنْهَضُ جَارِفًا أَبْنَاءَهُ الْمَوْتَى مِنَ السَّنَوَاتِ،

هذا دأبنا،

نَأْبِي،

نَلُودُ بَعْضِنَا الْآتِي،

وَنَنْسَى كُلَّ حِينٍ كَبُونَا الْمَلْهُوفَ مُضْطَرِمًا

عَلَى قَمَمِ الْعَصُورِ.

نَنْسَاهُ مُضْطَرِمًا عَلَى قَمَمِ الْعَصُورِ...

(جودت فخر الدين، "القصيدة نفسها"، 1984)



مرئية (4): المشهد من البيت، صيف 2025

... "وأما جنوباً، فنحو فلسطين" وسيبقى الأمر كذلك إلى الأبد. فالأرض لا تعرف حدوداً. هناك أشجار لبنانية ما زالت جذورها الحيّة في فلسطين، وصخور في الجليل تتذكّر الأيدي التي حملتها من جنوب لبنان، تتذكّر أمهاتها، تلال جبل عامل.

منذ أن وسّعت "إسرائيل" هجماتها على جنوب لبنان في 2 آذار 2026، وأنا أتساءل: ماذا يفعل المرء بقطع من الأغنام أثناء الإبادة؟ حتى أرسلت أُمي مقطع فيديو على واتساب. كان من الواضح أنه "أعيد إرساله مرات عديدة". قرية كاملة كانت تشاهده وتعيد مشاهدته.

الفيديو مصوّر من مقعد الراكب في شاحنة تتبع شاحنتين أخريين. يمكنك أن ترى الأغنام تموج، يسبح بعضها فوق بعض، بينما الشاحنة تهتز وتأرجح. وبين الفينة والأخرى، يطلُّ ماعز صغير أبيض برأسه من جانب الشاحنة.

يبدأ الفيديو بتصوير قافلة الشاحنات وهي تخرج من السلطانية قرب دكّان بشير، حيث كنا نشترى كل ألوان الحلوى في الصيف، ثم تمرُّ أمام بيت خالة أبي يسرى، وأشجار الصنوبر العتيقة تطلُّ من خلف الجدار الحجري. ثم تنعطف نحو "البيدر" الذي أصبح الآن حديقة عامة.

تنعطف القافلة يساراً نحو الطريق الرئيسي، صعوداً، فتمرُّ ببيت الحاج إسماعيل، وبيت خالة أبي الأخرى أم صلاح، وبيت أم فادي، وبيت المختار. في مكان ما على ذلك الطريق، يظهر كلب في الصورة. يتبع الشاحنة المحمّلة بالأغنام كأنه يتوسل أن يأخذه معهم. لكن الشاحنة تتابع سيرها والكلب يواصل اللحاق بها. يستسلم، لكنه يظل يلاحق الشاحنة وكأنه مصرٌّ على توديع القطيع.

قبل أن تنعطف القافلة مئة أخرة نحو الطريق الرئيسي إلى بيروت، يسقط الماعز الصغير المشاغب الذي كان يطلُّ من جانب الشاحنة. يرتطم جسده الصغير بالإسفلت وينكمش. يقول مصور الفيديو: "هذا انتهى أمره." ويقول السائق: "لعلّ من وراءنا يتوقفون ويلمونه". تتابع الشاحنات سيرها. ينقطع الفيديو. يبقى الماعز الصغير على جانب الطريق والكلب يواصل تتبّع القافلة في يأس.

هذا هو المشهد الأخير من السلطانية. مصطفى وقطيعه، آخر أهل القرية. هل توقّفت القافلة لأخذ الماعز الصغير؟ هل سيجد الكلب عزاءً في أنه لم يُترك وحيداً في النهاية؟ سرعان ما سيدرك أنه هُجّر وسيجوع في قرية لا ناس فيها. ولن يغيّر من مصيره إن كان صديقه ميتاً أو حيّاً على جانب الطريق